فى العلم متنوع المعارف، قوى الذهن، يجمع إلى ذلك العلم والأدب والكرم، وقد جلس للوعظ والتفسير، ورُحل إليه للسماع من علمه الغزير.

ألف كتبًا عديدة على رأسها هذا الكتاب ومنها: كتاب المسالك فى شرح موطأ مالك، والقبس على موطأ مالك وغيرها من الكتب التى بلغت خمسة عشر كتابًا تتنوع وتتشعب.

وقد استُقضى ببلده فكان قاضيًا صارمًا شديدًا، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم، يدرسه لطلابه، وقد كان أديبًا شاعرًا، سليم المنطق حسبما ظهر فى جلساته ومناظراته وتآليفه.

أما الكتاب الذى بين أيدينا، وهو كتاب أحكام القرآن، فهو من خير كتبه، وهو يحرص فيه - كما قدمنا - على إيراد آيات الأحكام مرتبة فى كل سورة، ثم يشرحها، ويستخرج ما فيها من أحكام، وهو يعتمد على اللغة وعلى الحديث، وعلى ما كان من أفعال النبى - ﷺ - وصحابته - رضي الله عنهم -، ويوازن بين المذاهب ويؤيد رأيه بالحجة الدامغة، والمنطق القوى، وقد رجع إليه العلماء، واستندوا إلى آرائه، بل إن القرطبى ينقل فقرات منه، ويحتج بآرائه، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتاب (الجامع لأحكام القرآن) من هذا الاستشهاد، بل إنه يحاكيه فى أن يذكر الآية ويقول: فيها مسألة أو مسألتان أو أكثر.

ونقف الآن أمام تناوله للبسملة فى مطلع كتابه، يقول بعد ذكر الآية الأولى من الفاتحة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فيها مسألتان:

المسألة الأولى: قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

اتفق الناس على أنها آية من كتاب الله تعالى من سورة النمل، واختلفوا فى كونها فى أول كل سورة، فقال مالك وأبو حنيفة: ليست فى أوائل السور بآية، وإنما هى استفتاح ليعلم بها مبتدؤها.

وقال الشافعى: هى آية فى أول الفاتحة، قولاً واحدًا، وهل تكون آية فى أول كل سورة؟ اختلف قوله فى ذلك؛ فأما القدر الذى يتعلق بالخلاف من قسم التوحيد والنظر فى القرآن وطريق إثباته قرآنا، ووجه اختلاف المسلمين فى هذه الآية منه -